نضال المرأة في الحركة الوطنيّة الفلسطينية

بقلم : رئيفة شبلاق

وضع المرأة الفلسطينية بالاساس لا يختلف عن وضع المرأة العربية عموما من حيث هامشية دورها في الحياة وتبعيتها — وخاصة الاقتصادية — للرجل ، ضمن مجتمع تحكمه تراكمات من الترسبات الاجتماعية التي لم تعمل الظروف التي خلفها التحرر السياسي للمجتمع العربي على ازالتها .

غير ان ظروف الاحتلال الصهيوني لارض فلسطين عام ١٩٤٨ ، اعطت للمرأة الفلسطينية وضعا متميزا نتيجة معاناتها من الناحيتين الاجتماعية والسياسية : فقد اوجد النزوح ظروفا اجتماعية جديدة ، جعلت المرأة الفلسطينية تتجاوز الكثير من التحديدات الاجتماعية السابقة ، وذلك بخروجها واقبالها على العمل نتيجة الاوضاع المعيشية السيئة ، فقد كان على المرأة الفلسطينية ان تعمل لمواجهة مستلزمات الاوضاع الاقتصادية الجديدة .

هذه المعاناة الاجتماعية للمجتمع الفلسطيني ساهمت في دفع المرأة الى الاقبال على التعليم لتعمل بعد التخرج ، خاصة وان امكانيات العمل تزداد كلما خصلت على شهادة اعلى ، لان امكانية الحصول على عمل بالنسبة للفلسطينيين ليست سهلة .

الى جانب معاناتها الاجتماعية فان للمرأة الفلسطينية معاناتها السياسية نتيجة للقهر السياسي من جراء الاحتلال الصهيوني لارض فلسطين ، حيث تجسد الدافع الوطني للشعب الفلسطيني لان يبحث عن اشكال النضال المختلفة لتحرير الارض والعودة الى الوطن ، فكان ظهور الاحزاب القومية — حزب البعث والقوميين العرب — والحزب الشيوعي مجالا لممارسة نوع من النضال السياسي ضد الامبريالية والصهيونية . ومن خلال هذه الاحزاب مارست المرأة نضالا سياسيا ، وتعرضت للاعتقال والسجن والتعذيب كما حصل في الاردن عندما تصدت السلطة الاردنية للقوى التقدمية والاحزاب الوطنية ، في نهاية الخمسينات .

هذه المعاناة المزدوجة للمرأة الفلسطينية، المتمثلة في حضور القضية في حياة المرأة الفلسطينية اليومية، اجتماعيا ، وسياسيا ، جعلت وضعها متميزا وفريدا بالنسبة للمرأة العربية عموما .

وعندما انطلقت الثورة الفلسطينية المسلحة، وجدت الجماهير الفلسطينية فيها التنفس الطبيعي لها ، حيث استوعبت المقاومة المسلحة كافة العناصر والفئات للمساهمة في تحرير الارض، ووجدت المرأة الفلسطينية لها مواقع جديدة ومنطلقا واسعا للنضال والمساهمة الفعلية في المقاومة لتثبت نفسها عنصرا هاما من عناصر الثورة المسلحة .

— اثر حركة التحرر الوطني على الواقع الاجتماعي للمرأة —

هناك مقياسان رئيسيان يمكن التدليل من خلالهما على مدى تحرر المرأة وتقدم وضعها الاجتماعي وهما:
١ — الانتاج . ٢ — النضال الثوري (١) .

ولو استخدمنا هذين المقياسين في تتبع مسار حركة التحرر الوطني العربية والفلسطينية بشكل خاص واثرها في تطور وضع المرأة الاجتماعي ومدى مساهمتها في الحياة العامة ، لامكننا التمييز بين ثلاث مراحل تاريخية لكل منها خواصها المختلفة :

المرحلة الاولى :

كانت تلك الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الاولى وهي مرحلة النضال الاولى ضد الاستعمار التقليدي، والتي قامت بقيادة البرجوازية الوطنية التي بحكم طبيعة تكوينها لم تطرح مفاهيم اساسية ترتبط بشكل مباشر بقضية المرأة مع انها معنية اساسا بحركة

التحرير الوطنية . ورغم انها اتاحت للمرأة مجال الاشتراك في العمل النضالي الا ان مساهمة المرأة فيها كانت محدودة بحيث اقتصرت على بنات العائلات المعروفة في المدن الكبيرة ، وشكلية لم تتعدى نطاق الاشتراك في تظاهرة او ارسال برقية احتجاج وغير ذلك، دون ان تعمل الحركة الوطنية على ايجاد تحولات اساسية في ثقافة الجماهير ، ودون ان تطرح برنامجا اجتماعيا للمساهمة في تغيير البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع ، بل كانت مساهمة المرأة بها مع الاستسلام لكافة الاوضاع الاجتماعية المتخلفة ، ولم تحقق اكثر من التحرر البرجوازي للمرأة الذي نرى اثاره في واقعنا الحاضر ، هذا التحرر الذي لم يحررها فكريا او اجتماعيا بل جعل المرأة تصبح اسيرة لمظهرها الخارجي وانوثتها التقليدية ، ولم تستطع ان تنال في هذه المرحلة أبسط حقوقها . وجاءت تلك الدعوات المبكرة لبعض الرواد مثل احمد امين وسلامة موسى وغيرهم ثم محاولة هدى شعراوي قائدة الحركة النسائية في مصر بمثابة محاولات غير مكتملة ، قافزة عن الواقع الموضوعي للمرأة .

في هذه المرحلة المبكرة، كان وضع المرأة الفلسطينية متميزا بعض الشيء بحكم تلك الانتفاضات الشعبية المسلحة والشاملة في وجه المؤامرة الاستعمارية لاقتلاع شعب فلسطين من ارضه ، والتي شملت المرأة الريفية بحكم المنابع الفلاحية لتلك الثورات ، حيث شاركت المرأة الريفية في التصدي لمحاولات الاستيطان الصهيونية ، دون ان يغير ذلك في وضعها الاجتماعي الذي استقر عبر سني السيطرة الاستعمارية والتخلف الاجتماعي .

المرحلة الثانية :

وهي فترة المد الوطني الذي شهدته المنطقة ، ونضالها لانجاز مهام الاستقلال السياسي في بداية الخمسينات ، حيث تجسد في الاحزاب القومية كحزب البعث والقوميين العرب بالاضافة الى الحزب الشيوعي ، وامكن خلالها رصد ظواهر جديدة على صعيد تحرر المرأة ، فقد اتاح التقدم البطيء الذي شهدته البلدان العربية التي نالت استقلالها السياسي للمرأة ان تنال قسطا اوفر من التعليم ويفتح امامها فرص العمل وخاصة في حقل التدريس ، نتيجة الاقبال على المزيد من تعليم المرأة ، نظرا لمتطلبات العصر . ومع انتقال قيادة العمل الوطني في هذه المرحلة الى الطبقة المتوسطة المتعلمة فقد أمكن للمرأة ان تتقدم خطوة أوسع على صعيد المشاركة النضالية من خلال الانخراط في الاحزاب بين فئات المتعلمات من هذه الطبقة ، وتنال تحررها السياسي الذي اقتصر على هذه الفئة من المتعلمات في المدن ، ولم يشمل المرأة الفلسطينية في الريف والمرأة في المخيمات الفلسطينية بسبب عدم طرح برامج حقيقية على صعيد التحول الاجتماعي من قبل هذه الاحزاب تفرض تحولات اساسية في بنية المجتمع .

المرحلة الثالثة :

في هذه المرحلة تجاوزت المرأة الفلسطينية نظيرتها العربية الى مواقع اكثر ديناميكية على صعيد تحررها السياسي والاجتماعي ، وذلك بعد ظهور المقاومة المسلحة للشعب الفلسطيني عام ١٩٦٥ وطرح استراتيجية حرب التحرير الشعبية الطويلة الامد .

وعلى الرغم من ان حركةالتحرر الوطني الفلسطيني لم تطرح برامج نظرية حول مسألة التحول الاجتماعي، الا انها استطاعت تحقيق امرين هامين :

١ ــ لقد جاءت المقاومة المسلحة لتتسع لكافة الفئات والعناصر التي تسعى الى طرد الاحتلال فاكتسبت صفة الشمول بحيث استوعبت الجماهير الفلسطينية على اختلافها من المدن والمخيمات ، ودخلت المرأة الفلسطينية الى المخيمات متخطية بذلك الحواجز الطبقية ولتقيم علاقات من نوع جديد لتجذر القاعدة الجماهيرية للثورة الفلسطينية من خلال الممارسة الفعلية للنضال المشترك بين نساء المدن ونساء المخيمات ولتزيل الغربة بينهما .

٢ ــ ان حالة النهوض الوطني التي رافقت النضال المسلح فرضت بالضرورة جملة ظواهر اجتماعية جديدة تمنح المرأة المزيد من المشاركة في النضال وتفتح امامها افاق جديدة للعمل ، وذلك نتيجة لجملة الوقائع التي اقتضاها انصهار اوسع القواعد الجماهيرية بالحركة المسلحة ومستلزماتها اليومية ، وقد فرض وجود المرأة في قواعد الثوار ، ومشاركتها الفعلية للنضال تحولا في علاقتها بالرجل ، فأصبحت رفيقة نضال مقبولة .

لقد رافقت هذا التحول الاجتماعي ولا تزال صعوبات جمة ، لانه لم يطرح نظريا من قبل حركة التحرير الفلسطينية ، بل فرض فرضا من خلال الممارسة الفعلية للثورة المسلحة ، ولان هناك هوة لا تزال قائمة بين الوعي السياسي والوعي الاجتماعي داخل الثورة الفلسطينية . وتستطيع المرأة باتساع مشاركتها العميقة والفعلية للنضال تضييقها ، ولكنها لن تكون قادرة على الغائها لكونها تتعلق اساسا بطبيعة وتركيب حركة التحرير الوطني الفلسطينية .

ــ صور من نضالات المرأة الفلسطينية ــ

كان للمرأة الفلسطينية دور في مختلف المراحل التاريخية التي مرت بها القضية . ففي عام ١٩٢٠ كان للمرأة دور وان كان ضعيفا ومحدودا تميز في محاولات التخلص من قيود القهر الطويلة من الظلم والتخلف .

وفي عام ١٩٢٩ عقد في القدس المؤتمر النسائي الاول الذي انبثق عنه « الاتحاد النسائي الفلسطيني » ليشكل المحاولات الاولى لتنظيم جهود المرأة . فشاركت من خلال الاتحاد في النضال السياسي ، الذي اتخذ شكل التظاهرات وارسال برقيات الاحتجاج ، حيث شاركت المرأة في التظاهرات التي عمت فلسطين احتجاجا على سياسة الانتداب الرامية الى اقامة وطن قومي في فلسطين ، لليهود المنتشرين في انحاء العالم. وفي عام ١٩٣٣ كانت النساء في طليعة مظاهرة القدس الكبيرة التي دعت اليها اللجنة التنفيذية العربية التي نددت بتهويد فلسطين واحتجت على الهجرة اليهودية الى فلسطين (٢) . وفي عام ١٩٣٦ عقدت النساء اجتماعا لهن في القدس خلال اندلاع ثورة ١٩٣٦ وذلك بتاريخ ٧ــ٥ــ١٩٣٦ ، واتخذت قرارات بالاحتجاج على سياسة بريطانيا ، والتهديد بالحث على العصيان المدني (٣) . وفي عام ١٩٤٧ خرجت مع المتظاهرين الى الشوارع تهتف لعروبة فلسطين ، وتندد بالاحتلال، وبقرار التقسيم .

ومن الامثلة على برقيات الاحتجاج ، ما رفعته المرأة الى عصبة الامم المتحدة ، والمندوب السامي بتاريخ ٤ــ١١ــ١٩٢٦ بمناسبة وعد بلفور ، وبرقية احتجاجا على تهريب اليهود للسلاح بتاريخ ٣٠ــ٣ــ١٩٣٠ (٤). وقد سمع صوت المرأة الفلسطينية في معظم المناسبات الوطنية وصور النضال التي خاضها شعبنا : ففي يوم « الثلاثاء الحمراء » التي اقدمت فيها سلطات الانتداب على اعدام ثلاثة من المناضلين ، حجازي وجمجوم والزير، واجهت المرأة هذه الاحكام بالزغاريدوالهتافات التي تتحدى هذه الاحكام .

وبتصاعد الحركة الوطنية في عام ١٩٣٥ ، وعندما اعلنت اول انتفاضة مسلحة في فلسطين بقيادة الشيخ عز الدين القسام ، التي ابتدأت نضالها في مدينة حيفا ، والتي استوعبت فئات فلاحية واسعة بحافز التمسك بالارض والدفاع عنها في مواجهة ازدياد الهجرة اليهودية الى فلسطين ، فاشترك بها المزارعون اشتراكا فعليا ، مما حدا بالمرأة القروية ان تشارك باشكال النضال المختلفة ، وخاصة النضال المسلح ، واستطاعت ان تصل الى الثوار، عندما انتقلوا الى جبال نابلس ، حاملة المؤن والذخيرة لتوصلها للثوار على ظهور الدواب ، وعندما اشتدت المعارك بين الطائرات البريطانية والثوار الذين يختفون بين اشجار الزيتون وفي المغاور ، كانت المرأة الريفية تشارك في النضال العسكري ، وتبث العزيمة في

نضال المرأة في الحركة الوطنية الفلسطينية

الارض من خلال ابراز شخصية المرأة الفلسطينية باشراكها في مجالات العمل التنظيمي والنضالي لمختلف المستويات على الصعيدين العربي والدولي .

على صعيد العلاقات العربية، اصبح الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية بتاريخ ٢٠-١-١٩٦٨ عضوا في مكتب الاتحاد النسائي العربي العام .

وفي عام ١٩٧١ اعد الاتحاد حلقة دراسية حول (الفكر الصهيوني فكر عنصري) ، وشارك فيها العديد من التنظيمات النسائية العربية في ٨-٣-١٩٧١ في القاهرة .

وقد تبودلت اللقاءات والتقارب والتفاهم بين الاتحاد وبين التنظيمات النسائية العربية بعضها ببعض في مواقف عمل متعددة ، منها الحلقة الدراسية للجنة الاسرة في الكويت ٢٨-١١-١٩٧٢ ، وحلقة محو الامية في السودان ، وحلقة حول المرأة في القوانين العربية في ضوء مقررات منظمة الامم المتحدة في ٢٧ مايو ١٩٧٤ في لبنان .

ومن انجازات الاتحاد العالمية ، حصوله على عضوية الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي ، الذي يضم (١١٠) هيئة وتنظيما نسائيا ، وذلك في مؤتمر هلسنكي في ١٤ يونيو ١٩٦٩ . وكانت اسرائيل ممثلة في الاتحاد النسائي العالمي ، وتوقف تمثيلها فيه بعد حصول الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية على عضوية هذا الاتحاد العالمي (١٣) .

وقد تأخر عقد المؤتمر العام الثاني للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ، حيث اصطدمت فكرة عقد المؤتمر بجملة اسباب وعقبات موضوعية وذاتية ، الى ان عقد في الفترة بين ٥-٨-١٩٧٤ في بيروت تحت شعار :

« تنظيم جهود المرأة الفلسطينية دعامة اساسية في معركة التحرير »، وقد كان هذا المؤتمر انطلاقة جديدة للمرأة الفلسطينية للعمل على اطلاق طاقاتها في الثورة الفلسطينية ، ولهذا فان نشاطات الاتحاد تزداد وتتعمق الان في المخيمات الفلسطينية .

وفي مناطق الشتات للمرأة الفلسطينية جمعيات نسائية فلسطينية مختلفة .

ففي لبنان جمعيات منها :

١ - « (جمعية انعاش المخيم) ، وهدفها اقامة مشاريع بهدف انعاش المخيم الفلسطيني ، وهي ذات طابع خيري .

٢ - (لجنة كنزة المناضل) ، وهدفها دعم المقاتلين وخاصة جيش التحرير الفلسطيني .

٣ - (لجنة القهوة) التي تلتقي اسبوعيا لتناقش الوضع بالنسبة للقضية ، وتجمع التبرعات لرعاية ابناء الشهداء .

ومما يميز هذه الجمعيات ان القائمات عليها من ربات البيوت من الاسر البرجوازية » (١٤) .

« وفي الارض المحتلة جمعيات نسائية مختلفة ، اسست بعد ١٩٦٧ مثل : (جمعية انعاش الاسرة) ، في رام الله وضواحيها ، (وجمعية اسر المقاتلين) في نابلس ، والغرض من هاتين الجمعيتين هو تشغيل الايدي العاملة واستقطابها للعمل حتى لا تضطرها للعمل في مصانع العدو ، فاقامت مصنعا للملابس ، هذا بالاضافة الى احياء التراث الشعبي الفلسطيني الذي يحاول العدو الصهيوني نسبته اليه » (١٥) .

لقد حققت المرأة الفلسطينية ، باشتراكها في النضال السياسي مع الرجل ، مكاسب على طريق تحررها التام ، وتحقيق نفسها عنصرا اساسيا في الثورة الفلسطينية ، بايجاد نوع جديد من العلاقات داخل الثورة الفلسطينية ، التي جاءت قسرا بحيث فرضتها الممارسة الفعلية للنضال ، ولم تات ضمن برنامج مطروح من قبل حركة التحرير الفلسطينية . هذه المكاسب والتحولات جعلت المرأة الفلسطينية تتجاوز الواقع الموضوعي للمرأة العربية بشكل عام .

غير ان هذه المشاركة من قبل المرأة الفلسطينية ما تزال لا تتناسب اطلاقا مع حجمها ، ولا تزال هناك طاقات لم تفجرها بعد ، وامكانيات لم تبرزها بسبب الواقع الاجتماعي العام الذي ما زال يضع قيودا تعيق تحركها بالشكل المطلوب . ان هذا الواقع الاجتماعي للمرأة بشكل عام ما هو الا انعكاس لواقع الرجل . ضمن البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع ، وتحرر المرأة مرتبط جدليا بتحرر الرجل نفسه من امتيازاته الاجتماعية بالنسبة للمرأة ، ومن فكرته السائدة حولها . ولا يمكن تحقيق هذا التحرر الا بتغيير الواقع الاجتماعي عن طريق النضال السياسي المشترك للرجل والمرأة ، لما له من اثر فعال ومباشر في تحقيق مكاسب حقيقية على طريق تحرر المرأة الفعلي ، واثبات نفسها عنصرا اساسيا في الثورة المسلحة .

فالواقع الاجتماعي لا يمكن تغييره جذريا الا بالنضال الاجتماعي المرتبط بالنضال السياسي ، فيحرك التغيير من خلال عملية الصراع الاجتماعي الذي يحول المفاهيم السائدة ويقلبها في اطار ثورة شاملة للمجتمع ككل .

اننا كحركة تحرر وطني مدعوون الى مزيد من التحولات الاجتماعية حتى تواكب تقدمنا السياسي ، وتدفع بنا الى مواقع ارقى .

هوامش

(١) بسام الطيبي — مسألة تحرر المرأة في المجتمع العربي الحديث — مجلة الطليعة المصرية عدد (١١) — سنة (٤) — نوفمبر ١٩٦٨ ، ص ٦٨ .

(٢) وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية (١٩١٨ — ١٩٣٩) — سلسلة الوثائق العامة — مؤسسة الدراسات الفلسطينية — ص ٣٤٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٦٠ .

(٥) نضال المرأة في الارض المحتلة — دراسة اولية للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية — ١٩٧٤ .

(٦) وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية (١٩١٨-١٩٣٩) — الوثائق العامة — مؤسسة الدراسات الفلسطينية — ص ٢٠٣ .

(٧) المصدر نفسه ص ٣٠٤ .

(٨) نضال المرأة في الارض المحتلة — دراسة للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ص ٣ .

(٩) باسم سرحان — تقليدية المرأة الفلسطينية في لبنان ومشاركتها في الثورة الفلسطينية — شؤون فلسطينية — عدد (١) — اذار ١٩٧١ .

(١٠) المرأة الفلسطينية ودورها في الحركة الوطنية — مجلة الاتحاد — الاتحاد العام لطلبة فلسطين — عدد (٢٦) تشرين اول ١٩٧٢ .

(١١) نضال المرأة في الارض المحتلة — دراسة للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية — ص ٢ .

(١٢) دراسة هدى عسيران — عن نضال المرأة الفلسطينية — لفلسطين الثورة ٩-١-١٩٧٤ . مكتبة مركز الابحاث الفلسطيني .

(١٣) تقرير عام حول العلاقات الخارجية للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية بالقاهرة ١-١-١٩٦٧ — ٣٠-٧-١٩٧٤ . مقدم الى المؤتمر الثاني للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ٥-٨-١٩٧٤ — ١٠-٨-١٩٧٤ .

(١٤) نضال المرأة الفلسطينية في لبنان — ملامح اولية — (١٩٤٨-١٩٦٧) — دراسة للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ، ١٩٧٤ .

(١٥) المرأة الفلسطينية ودورها في الحركة الوطنية — مجلة الاتحاد — يصدرها الاتحاد العام لطلبة فلسطين — عدد (٢٦) — تشرين اول ١٩٧٢ .